إلى جوته ...

للأستاذ نصري عطا الله

احتفلت الدنيا بمرور مائتي عام على مولدك ، ومنذ أعوام قلائل احتفلت بمرور مائة عام على رحيلك عنها ... فهل رحلت حقاً وانتهت حياتك يوم غيبوك في التراب كما يرحل عشرات الألوف من أبناء الفناء كل يوم ، أولئك الذين يفدون إلى هذا العالم ويتنفسون هواءه حقبة من الزمن ثم يرحلون منه دون أن يكون لحياتهم هدف أو معنى أو مبررات ، أولئك الذين ينسون أنفسهم في حياتهم فتنساهم الدنيا ويموتون قبل أن تفارق الروح منهم الجسد ... هل مت حقاً مثلهم ؟

لا ، إنك لست منهم ، إن الدنيا ستظل تعتز بك وتتمسك بوجودك وتصر على بقائك في الأحياء ، لأنك من بين أبنائها القلائل الذين تفخر بهم وتحس في وجودهم كبرياءها وعظمتها ونفاستها . إننا — ومن بعدنا الأجيال — نحبك ونجلك ، ونحن نحبك لنفسك ولكننا نحبك أكثر من أجل معجزة الإله فيك ، فكم من أبواب الحياة ظل مغلقاً ، وكم من طرقاتها ظل مظلماً مجهولا حتى أتيت أنت فإذا بيدك المباركة تفتح الأبواب الموحدة ، وإذا بنور عبقريتك يبدد الظلام ، وإذا بالحياة متسعة الرحاب بعيدة الآفاق . لقد كانت الحياة بدونك فرضاً أو عبئاً أو واجباً فإذا هي بك فرحة ونضرة وتحمس لغاية وغايات .

لقد علمتنا أن نضع أنفسنا فوق الصغائر : فوق الحقد والحسد والغيرة والعناد وأن تطهر قلوبنا وتتسع فيها المجال لتلقي رسالات الخير والحق والجمال . أجل ، في محبتك يخجل الإنسان من الصغائر والصغار ويتطلع إلى الأعالي ، ينقي نفسه من أدرانها ويصلي لله بحرارة أن يهبه القدرة على السمو بحياته وتنمية مواهبه الخفية واستغلال قواه الكامنة حتى يصبح جديراً بصحبتك وبإنسانيتك الكاملة الناضجة .

إنك تستنهض ذاتنا العليا — وماذاتنا العليا إلا روح الله في هيكلنا البشري ، وتخلق لنا أجنحة نحلق بها فوق هذه الحياة ، فما نلبث أن نخجل من ذاتنا الصغرى ومن تصرفاتنا الأرضية وتفاهاتنا وحماقاتنا التي ، تمليها علينا في هذه الأرض الشقية ما نسميه بالحكمة العملية ، أو يفرضها علينا ضعفنا البشري .

أيها الحبيب . إن النور الذي تشعه عظمتك يهدينا إليك ويقربنا منك ويملأ قلوبنا فرحة بك وحباً وإجلالاً لك .

وإذا بالقلب وقد امتلأ حباً لك يشعر أنه لا يستطيع وحده أن يسع عظمتك كلها فيهيب بالعقل والروح والخيال أن يشاركوه العبء العظيم أو النعمة الكبرى .

وكم يسعد العقل إذ يجاهد في توسيع دائرة أفقه ، وكم تنعم الروح وهي ترق معك إلى أعلى القرى ، وكم يبتهج الخيال وهو ينشر أجنحته ويظل يصعد في الأجواء البعيدة حتى يصل إليك ويحوم حولك .

كل قوى الإنسان وملكاته تلبي نداء القلب وتؤازره في محاولة تفهمك وارتياد تلك المساحات الشاسعة من العالم النفسي ، التي سبق أن جبتها أنت ، رائداً ، ودليلاً ، وهادياً ، ومنشداً ، ومغنياً ! هكذا تهدينا إلى كنوز النفس الإنسانية وعوالمها الواسعة الشاسعة التي تظل مجهولة أو كالمجهولة تحت ستار من غبار معركة الحياة بما فيها من خير وشر ، وسمو وإسفاف ، ونور وظلام ، وهدى وضلال .

إننا نتذكرك ونباركك ، لأنك تمنحنا من ذات نفسك ، من طريق إحياء ما في نفوسنا ما يبارك أيامنا ولياليها ، ويضاعف ويخصب معنى الحياة في قلوبنا ، فكأنك تمنح عمرك مجدداً على مدى الأزمان كل من طرق بابك ورام صحبتك ونشد زمالتك . وعمرك — أيها العظيم — هو خلاصة حكمة الدنيا وفلسفتها وشعرها وما تنطوي عليه من حق وخير وجمال .

إنك ستظل الدنيا تعتز بك وتتمسك بوجودك وتصر على وجودك في الأحياء .

نصري عطا الله

« من الأعماق » لتكون خاتمة هذا الحديث :

وافترقنا . وبين كفي رسم ... لم يزل كل زاد روحي المتيم

كم تلمست عمق عينيك فيه ... وبعيني أدمع تتضرم

يا لقلبي « كم راح بين يديه ... يهتك الحجب من هواه المكتم »

اسمع تسمع عبر الصحاري صداه ... يتراءى إليك شعراً مرنم

« العراق — النجف » عبد المنعم الحكيم